مين دى بيران

(١٧٦٦ - ١٨٢٤)

فيلسوف المذهب الروحى فى العصر الحديث

للأستاذ زكريا ابراهيم

مين دى بيران فيلسوف فرنسى ممتاز ، أدرك الباحثون قيمته بعد وفاته ، فاهتموا بنشر مؤلفاته ، واعتنوا بدراسة فلسفته . وقد ذاعت شهرته على أثر ذلك ، فاتى مذهبه رواجاً كبيراً بين الأوساط الفلسفية التى أقبلت على دراسته .

والفكرة الأساسية التى يقوم عليها مذهب « دى بيران » هى أن الحقيقة الجوهرية الأولى ليست سوى « الذات » باعتبارها مريدة ، أى « الروح » باعتبارها فاعلة . فما يكون جوهر الإنسان ، إنما هو الإرادة . والإرادة هى التى تميز الإنسان عن الحيوان ، لأن الإنسان لا يحيا ويحس ويشعر فحسب ، بل هو يفكر ويريد ويفعل . وإذا كان الإنسان يدرك ذاته ، فإنه لا يدرك هذه الذات إلا باعتبار أنها علة ، وقوة ، وإرادة ، وجهد ، وفعل . ومعنى هذا أن نقطة البدء فى كل معرفة حقيقية ، إنما هى تلك الواقعة الأولية للشعور أو الوعى الإنسانى ، وهى الحس الباطن أو التجربة الباطنة . وفى هذه البداية يتفق دى بيران مع فخته Fichte اتفاقاً كبيرا ، حتى لقد سمى كوزان فيلسوفنا باسم : « فخته الفرنسى » .

غير أن دى بيران يستبدل بفكرة فخته عن « الفعل » فكرة أخرى جديدة هى فكرة « الجهد » . فالواقعة الأولية عند مين دى بيران ليست هى « الإحساس المجرد » الذى يقول به كوندياك Condillac ، وليست هى « الفكر » بالمعنى الذى قصد إليه ديكارت ، بل هى « المجهود » الذى يقوم عليه إدراك الذات لنفسها .

ولما كانت الواقعة الأولية للذات « Le Fait primitif » هى إدراكها لنفسها ، من حيث هى قوة حرة ، تعمل وتشرع فى الحركة ، بإرادتها الخاصة ؛ فإن الصواب (فى نظر دى بيران) لا أن نقول (كما قال ديكارت) : « أنا أفكر ، فأنا إذن موجود » أو بعبارة أخرى : « أنا أدرك نفسى باعتبارى علة حرة ، فأنا إذن علة موجودة بالفعل » . وفى موضع آخر نجد مين دى بيران يصحح مقالة ديكارت فيقول : « إذا كان ديكارت قد توهم أنه اهتدى إلى المبدأ الأول لكل علم حين قال : « أنا أفكر ، فأنا إذن شىء موجود ، أو جوهر مفكر » ، فإن فى استطاعتنا أن نقول — تصويباً لهذه العبارة — وبالإستناد إلى شهادة الحس الباطن التى لا ترد : « أنا أفعل ، أنا أريد ، أو أنا أتعقل الفعل فى ذاتى ، فأنا إذن أدرك نفسى كعلة ، وإذن فأنا موجود ، أو أنا كائن باعتبارى علة أو قوة » .

هذه الحقيقة الأولى التى يؤكدها دى بيران بكل قوة (حين يقول إن الذات تدرك نفسها باعتبار أنها مجهود ، وإرادة ، وفعل) تدلنا على أن فيلسوفنا هذا كان المؤسس الأعظم للمذهب الروحى فى العصر الحديث ؛ وهو المذهب الذى ساعد على تقدم علم النفس ونظرية المعرفة ، والعلوم الخلقية على وجه العموم ، فى نهاية القرن التاسع عشر . والواقع أننا إذا نظرنا إلى بيران ، سواء من الناحية الذاتية أو من الناحية الموضوعية ، فإننا نجد أنه من أعظم المفكرين الذين قادونا إلى الناحية الباطنة فى الإنسان[1] . بل ربما كان بيران أعظم فلاسفة المذهب الروحى فى فرنسا . وهو بالفعل قد توفر على التوسع فى المذهب الروحى الذى أقامه أستاذه « ليبنتس » ، فأظهرنا على أن الإنسان (فى حقيقة الأمر) ليس ألعوبة فى يد الأقدار ، أو عبداً ذليلا للضرورة المستبدة ، بل هو ذات مريدة فاعلة ، لا تستمد نشاطها وقدرتها على الفعل من الأشياء الخارجية ، بل من جهدها الإرادى ونشاطها الذاتى ، أعنى من الإرادة » .

والنفس الإنسانية — فى نظر بيران — لا تتمثل باعتبارها

الأخلاق فكيف اختارهم الله ؟ والجواب عند سيدنا موسى على ما ذكرته التوراة : لا تظنوا أن الله سيأتى بكم الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس فى طاعته . كلا . فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين .

على محمد حسن
المدرس بمعهد القاهرة

(١) لا بد لنا أن نشير إلى أن الناحية الذاتية عند بيران ، كما تكشف عنها مذكراته الخاصة « Journal intime » تتفق تمام الاتفاق مع الناحية الموضوعية عنده ، كما يكشف عنها كتابه الموسوم باسم : « علم الانسان » « Anthropologie » .

ذاتا فاعلة ، إلا بالممارسة المستمرة لقوتها الخاصة ؛ ما دامت هذه الممارسة حرة غير خاضعة لأية ضرورة أو قوة خارجية ، أى مادامت غير متوقفة على قوى الطبيعة الخارجية .

وقد فرق بيران بين الإنسان والحيوان من جهة ، وبين الإنسان والله من جهة أخرى . غير أنه لم يقصد بهذه التفرقة أن يقيم هوات غير معبورة بين الحيوان والإنسان ، أو بين الإنسان والله . وإنما الذى اهتم به بيران وقصد إليه فعلا ، هو أن يقرر تلك الحقيقة الهامة عنده ، وهى أن الحياة الإنسانية بمعنى الكلمة إنما هى تلك التى تعلو على المستوى الحيوانى . وما يميز الحياة الحيوانية (فى نظره) هو أنها تخضع للانفعالات العمياء ؛ أعنى أنها لاتتميز بالحرية والإرادة والإختيار . وعلى الرغم من أن بيران لا ينزل بالحيوان إلى درجة « الآلة » ، كما فعل ديكارت ، فإنه يعتبر أن الحيوان يحيا دون أن يعرف ما هى حياته ، ويشعر دون أن يعرف أنه يشعر ، أى بعبارة أخرى ليس لديه « ذات » أو « إنية » .

أما الحياة الإنسانية فإنها تبدأ حيث تنتهى الحياة الحيوانية ، أى حيث يبدأ الشعور بالذات ، أو التجربة الباطنة التى تدرك فيها الذات نفسها على أنها قوة فاعلة وإرادة حرة . وبعبارة أخرى فإن الإنسان لايحيا حياة إنسانية خالصة ، إلا بقدر ما يتحرر من الضرورة العمياء ، والأهواء الأنانية . والحيوانية داخلة فى الحياة الإنسانية ، نظراً لأن الإنفعال موجود فى الإنسان إلى جوار الفعل ؛ ولكن فى استطاعة الإنسان أن يشارك فى حياة غير إنسانية ، هى حياة الروح التى تعلو على الحياة البشرية . وفى هذا الصدد يتفق بيران مع نيتشه الذى يقول : إن الإنسان وتر مشدود بين الحيوان والإنسان الأعلى . — وما يميز الحياة الإنسانية بالنسبة إلى الحياة الحيوانية والحياة الروحية ، هو النشاط والشخصية وحرية الفعل ؛ أعنى المجهود الذى يبذله الإنسان فى مقاومة الأهواء ، وتنمية قواه النفسية ، من أجل الوصول إلى حياة إنسانية بمعنى الكلمة . أما بالنسبة إلى ما هو دون الإنسان أو ما هو فوق الإنسان ، فليس ثمة جهاد أو صراع ، لأنه ليس ثمة جهد أو مقاومة — .

والحياة الإنسانية هى فى أعلى صورها تحرر من نير الأهواء والإنفعالات ، وتجاوز لمرتبة الحياة الحيوانية ، وارتفاع إلى مرتبة الحياة الروحية .

زكريا ابراهيم
مدرس الفلسفة بمدرسة السويس الثانوية

من وحى الصيف :

على جبل الرويس

للأستاذ حسن الأمين

سقياً لأيام الرويس فطالما ... كانت لأدواء الفؤاد دواء
ملق الجمال النضر فى ذرواته ... وعلى السفوح الماء والخضراء
وتشوقنا الأصباح فى أفيائه ... وتطيب حول كرومه إمساء
قد جئته قلباً ينوء بدهره ... هماً ويرزح شقوة وعناء
عبست له الدنيا فلم ير باسماً ... للناس إلا أن يكون رياء
رضى الشجون من الحياة بحابة ... ومن الزمان همومه خلطاء
حتى إذا برز الرويس وأقبلت ... دنياه تزخر متعة ورجاء
بعثت هوى القلب القديم وهيجت ... للحب فيه الوجد والبرحاء
وجلت لنا الحسن الرفيع وأطلعت ... فى كل أفق كوكباً وضاء
وطلعت يا ظمياء فى صرح الصبا ... وجهاً أغر ومقلة نجلاء
ودعوت للحب المبرح والجوى ... قلباً خلياً من هواك فجاء
أحببت أفياء الرويس وإنما ... أحببت من حبى لك الأفياء
فالليلة القمراء فيه لم تكن ، ... إلا بوجهك ليلة قمراء
والروضة الغناء ما كانت لنا ... إلا بحسنك روضة غناء
لم يحل لولاك الرويس ولم يطب ... أرضاً ولم يعذب لدىّ سماء
قد كنت بهجته وكنت رواءه ... فبما بعينى بهجة ورواء
تمشين فى الأرجاء عاطرة الشذى ... فتعطرين بعرفك الأرجاء
ويطل وجهك فى السجوف كأنما ... ألق السعادة فى السجوف تراءى
وأراك فى غسق الزمان فأجتلى ... نور الضحى من مقلتيك أضاء
يا أيها الجبل الأشم أسامع ... نجوى يرددها الفؤاد وفاء
إنى لأطرح فى ذراك كآبتى ... وأرد عن قلبى بك البأساء
وتهيجنى ظمياء فيك ملاحة ... وتثير أشواقى لها إغراء
كانت ليالينا عليك ضواحكا ... أبداً وأيام الهوى غراء
أرشفتنا العذب الزلال على الظما ... ومنعتنا الأكدار والأقذاء
وعرفت فى واديك غير مباهجى ... ولمست تحت ظلالك السراء
إن تحبُنى العيش الرغيد فلن أنى ... أشدو بذكرك فى الحياة غناء
وأرتل الشعر الرقيق منمقاً ... بجمالك الإنشاد والإنشاء

(بغداد)

حسن الأمين